وصية لأخيه جرانده يترجاه فيها أن يرأف بابنه اليتيم الذي شب في النعيم، واكتسب لين شباب باريس، ولكن الأب جرانده لا يتأثر إطلاقاً بكارثة أخيه وانتحاره، ولا يعبأ بوصيته. وحين تفاتحه زوجته في هذا الموضوع وتلفت انتباهه إلى ضرورة الحداد من أجل الفقيد، يرفض؛ توفيراً لثمن ثياب الحداد:

«ـ يا صديقي الطيب. ينبغي أن نحدّ.

ـ حقاً، يا سيدتي غرانده، عدت لا تعرفين ما تبتدعين لإنفاق المال. الحداد في القلب وليس في الثياب.

ـ لكن الحداد على الأخ لا مندوحة عنه. والكنيسة تأمرنا بـ....

ـ اشتري لحدادك من لويسات السنة. وحسبي أنا شريطة سوداء تعطينيها»[٤٥].

وبدها فإن البخيل «غرانده» لم يعر ابن أخيه الذي زاره في بيته أدنى اهتمام ولا أعطاه أي شيء. إلا أن الفتاة «أوجيني» تقع في حب «شارل» ويتفقان على الزواج سراً، وتهديه كل ما ادخرته من عطايا أقاربها في أعياد ميلادها كي يسافر إلى الهند ويشتغل، معتمداً على نفسه ثم يعود فيتزوجها.

وعندما يسافر «شارل» تمكث «أوجيني» تجتر أحلامها على طريقة كل الريفيات اللواتي صور بالزاك عواطفهن البريئة الصادقة، وترفض كل الطامعين في الزواج منها. ويموت العجوز «غرانده» والد «أوجيني»، كما تموت أمها، فتجد نفسها وحيدة حزينة، لا أمل لها سوى عودة ابن عمها ومشاركتها في إنفاق الثروة الكبيرة التي ورثتها عن الراحلين.

وفي هذه الأثناء تسمع «أوجيني» بعودة ابن عمها إلى باريس بعد أن أصبح غنياً، وتتلقى منه رسالة يعلن فيها تحلله من عهده، لأن نظرته إلى الحياة تغيرت، فهو يريد أن يتزوج فتاة تنحدر من الأسرة الملكية، أسرة «شارل العاشر»، ويريد أن يظهر تحت اسم آخر هو اسم «الكونت دوبريون» ولنتركه يعبر بنفسه عن شعوره وآماله: «.. عليّ ألا أخدعك، فعندي الآن مشروع اقتران يلائم كل ما كونت من آراء في الزواج. فالحب في الزواج محض خرافة، بل فيه يجب